# المدائح النبوية في عصر الحروب الصليبية

الدكتور ناظم رشيد
مدرس

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

آل الشرق الأسلامي في نهاية القرن الخامس للهجرة إلى فئات مبعثرة ، لايجمع بينها اتحاد ، ولا يضمها سلطان قوي . ففي كل ولاية أمير يناوىء جاره ، ويكيد له، ويتربص به الدوائر ، ليشن الغارات على ولايته ، ويؤوب من عنده بالغنائم والأسلاب، ويدع له الأشلاء والدماء والنيران والدمار ، انصياعاً لهوى الأطماع ، ودواعي المآرب والغايات . على حين كان الغرب يضم اليه أدانيه وأقاصيه ، ويلم شعثه ، ويرتق فتقه ، ويرأب صدعه ، ويتهيأ للانقاض على الشرق المتداعي ، طمعاً في خيراته ووافر ثرواته، لا — كما زعم أبناؤه — لتخليص قبر السيد المسيح — عليه السلام — من أيدي المسلمين: فلما استجمعوا قواهم وخفقت راياتهم ، وتعالت بالحقد الأعمى أصواتهم ، اندفعوا موجات متتابعة ، وفي فترات متقاربة ، مدة قرنين من الزمان ، ابتداء من سنة ٤٩٢ للهجرة ، فأهلكوا الحرث والنسل والضرع ، وأشاعوا الدمار في القرى والأمصار ، حتى قدّر المؤرخون عدد الذين قتلوا في مذبحة أنطاكية بعشرة آلاف نفس ، وفي معرّة النعمان بمائة الف ، وفي بيت المقدس بسبعين ألفاً (١). وقال ريموند دى اكليس الذي شاهد المذبحة الأخيرة : « إنّ الدماء قد وصلت في رواق المسجد إلى الركب » (٢) ، فما لم يشاهده قد يربو على التقدير ، ويفوق النعت والتعبير .

لقد فرّ الناجون إلى الله من هول هذه الحرب الضروس ، وتضرعوا اليه أن يدفع عنهم الكرب الشداد ، ويحسر أسجاف البلايا الصفيقة. وتوزع الشعراء إلى فريقين ، ذهب فريق إلى الاعراب عن دخائل النفوس وكوامن الأفئدة وإلى الإفصاح عن ضراوة الأحداث وجسامة الأهوال والكوارث بقصائد عامرة ، منها قصيدة الإمام الغزالي (ت ٥٠٥ هـ ) والتي مطلعها(٣):

الشدّة أودتْ بالمهـجِ ... يارَبّ فعجلْ بالفرجِ

ومنها :

والأزمةُ زادتْ شدّتها ... يا أزمةُ علكِ تنفرجي

جئنـاك بقلبٍ منكسرٍ ... ولسانٍ بالشكوى لهج

---

(١) مختصر تاريخ العرب ص ٢٨٦.

(٢) المصدر السابق ص ٢٨٧.

(٣) الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي في مصر والشام ص ٢٣٧.

وقصيدة يوسف بن محمد التوزري المعروف بابن النحوي (ت٥١٣) المشهورة بالمنفرجة ومطلعها (١):

اشتدي أزمة تنفرجي قد آذن ليلك بالبلج

وذهب فريق آخر إلى التضرع بالرسول الكريم (ص) والتوسل لديه ؛ والتعلّق بأعتابه أن يزيل عنهم الأحزان الجاثمة ، ويردّ الأمن والدعة إلى نفوسهم الهائمة ، ويلج بهم أبواب الرحمة الواسعة إلى ساحات الرضا السرمدي والراحة الخالدة . وخصّص بعضهم دواوين كاملة في مديحه ، منها على سبيل المثال لا الحصر : «التنوير في مولد السراج المنير» لابن دحية الكلبي (٢) ، وقد أهداه سنة أربع وستمئة لمظفر الدين بن زين الدين صاحب إربل وأحد قواد صلاح الدين الأيوبي في معركة حطين ، و«أهنى المنائح في أسنى المدائح» للشهاب محمود بن سلمان (٣) ، و«بشرى اللبيب بذكرى الحبيب» لابن سيد الناس اليعمري (٤) ، و«نظم الدرر في مدح سيد البشر» لأبي عبدالله محمد بن عبدالله بن محمد بن أبي بكر العطار (٥) ، و«القصائد الوترية في مدح خير البرية» لأبي عبدالله محمد بن أبي بكر بن رشيد الواعظ البغدادي(٦). وديوان أبي زكريا الصَّرْصَري الذي قال عنه اليونيني بأنّ «مدائحه فيه — صلوات الله عليه وسلامه — تقارب عشرين مجلداً»(٧).

لقد زها شعر المديح النبوي في تلك الحقبة الهائجة المائجة ، وكثر الإقبال عليه ، وعم تعاطيه من أرباب القريض ، وراجت سوقه رواجاً مشهوداً ، غصّ فيها على كل الأصناف والألوان ، بعد أن تضافرت له الدواعي والأسباب:

فهاهم أولاء الصليبيون قد عاثوا فساداً في ديار الشام ومصر ، وامتلكوا ناصية القدس الشريف ، واشرأبت أعناقهم إلى البيت الحرام ، وشردوا الآلاف الآمنين من ديارهم ،

---

(١) مفتاح السعادة ٣ : ١٤٤.
(٢) وفيات الأعيان ٤ : ١١٩.
(٣) منه نسخة بدار الكتب المصرية رقم ١٣٩٦ أدب.
(٤) منه نسخة بدار الكتب المصرية رقم ٦٨٩١ أدب.
(٤) نفح الطيب ٧ : ٤٨٩.
(٦) منه نسخة في المتحف العراقي رقم ٢٠٩٢ أدب.
(٧) ذيل مرآة الزمان ١ : ٢٥٧.

وتركوهم يهيمون على وجوههم في البراري والقفار ، يطاردهم الطوى والعوز ، ويلاحقهم البؤس والشقاء ، ويعتادهم المرض والوباء . وقد جرّ هذا الوضع المزري إلى اختلال التوازن الاجتماعي ، وتردي الأحوال ، وشيوع الفقر والجوع ، ونقص الأموال والثمرات ، واضطراب حبل الأمن ، وانتشار المسكرات والموبقات ، وفشو التطفيف في الموازين والمكاييل ، وما سوى ذلك من ضروب الفساد والانحلال . عند ذلك جال المسلمون بأبصارهم فيما حولهم — ماخلا بعض الفترات — فلم يجدوا من يحميهم ويدفع الضيم والعدوان عنهم ، وعجزت وسائلهم المادية الضعيفة عن الدفاع ، ورد الغزاة الباغين عن حماهم ، فالتجأوا إلى الله ورسوله ، جاعلين التضرع والتوسل سبيلين إلى الرحاب العلوية والنفحات المحمدية . فالذبُّ عن الإسلام فرض واجب على كل مسلم ، فإن عجز لسانه ويده ففي التضرع والدعاء الكفاية والغناء كما عبّرَ عن ذلك ابن قيم الجوزية(ت ٧٥١) في إحدى قصائده (١):

هذا ونصرُ الدينِ فرضٌ لازمٌ لاللكفاية بل على الأعيانِ
بيدٍ وإمّا باللسانِ فإنْ عجزْ تَ فبالتوجهِ والدعا بجنانِ

وكان للتصوف — وبخاصة أيام الملوك الفاطميين والسلاطين من الأيوبيين والمماليك — دور مشهود في شيوع شعر المديح والاحتفال به ، عندما كان المتصوفة يعطرون تكاياهم وزواياهم ورباطاتهم بقراءة القصائد التي تتناول سيرة الرسول وتذكر صفاته وفضائله : « كما اتخذوا شفاعته والتوسل اليه طريقاً إلى الله » (٢) .

كما زاد الإقبال على الذهاب إلى الحجاز والمكوث إلى جوار قبر الرسول وتدبيج القصائد التي تشيد برسالته وتنوه بفضائله ومناقبه :

وقد أثار تهجم الصليبيين على الدين الإسلامي والرسول (ص) حفيظة عدد من الشعراء الذين انبروا يردون عليهم ، ويريشون السهام إلى نحورهم ، ويناقشون عقيدتهم ، وينافحون عن نبيّهم ورسالته الخالدة ، التي بشر بها العالمين ، وهدى الضالين (٣) :

---

(١) الحروب الصليبية وأثرها في الأدب ص ٢٤١.

(٢) في التصوف الاسلامي — مقدمة المترجم صفحة ش، وانظر دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين ص٥٦، وابن نباته المصري ص ٦٤ .

(٣) انظر الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية ص٥١٦ .

وراع المسلمين ظهور نار عظيمة بالقرب من المدينة سنة ٦٥٤ للهجرة كانت تضيء من مسافة بعيدة ، وهي نار بركان كبير ثار آنذاك ، وقد جاء أبو شامة المقدسي على تفصيلها(١) وأورد قصيدة لشاعر لم يذكر اسمه ، وصفت هذه النار ، منها هذه الأبيات :

بحرٌ من النارِ يجري فوقَهُ سفنٌ ... من الهضاب لها في الأرض إرساءُ
يسرى لها شررٌ كالقصر طائشه ... كأنّها دِيَمةٌ تنْصَبُّ هطلاء
ينشقُ منها قلوبُ الصخرِ إنْ زفرتْ ... رعباً وترعدُ مثل السيفِ أضواءُ
منها تكاثف في الجو الدخانُ إلى ... أن عادت الشمسُ منه وهي دهماءُ

لقد دعا الله أن يفرج عن المسلمين الخطب الكبير الذي ألم بهم ، ويبعد عنهم نقمته التي تمثلت في هذا البركان الثائر الذي ألقى حجارة حامية وشواظاً من نار ، وأخافت الناس أن يمتد لهيبه إلى المدينة التي تضم قبر الرسول والصحابة الأجلاء، واختتم قصيدته بقوله:

ونحن أمةُ هذا المصطفى ولنا ... منه إلى عفوكَ المرجو دعاءُ
هذا الرسولُ الذي لولاه ماسلكتْ ... محجّة في سبيل الله بيضاءُ
فارحم وصل على المختار ماخطبت ... على علا منبر الأوراق ورقاءُ

وقال ابن الوردي عن هذا البركان الغاضب في حوادث سنة ٦٥٤للهجرة: «وظهرت نار بالحرّة عند مدينة النبي — صلى الله عليه وسلم — وكانت تضيء بالليل من مسافة بعيدة جداً... ونظمت الشعراء عند ظهور هذه النار مدائح في النبي صلى الله عليه وسلم»(٢) وذكر قصيدة للمشد سيف الدين عمر بن قزل ( ت ٦٥٦) في مدح النبي ، منها هذه الأبيات في وصف النار المضيئة :

لها شررٌ كالبرقِ لكنّ شهيقها ... كالرّعدِ عندَ السامعِ المتأملِ
وأصبح وجهُ الشمسِ كالليلِ كاسفاً ... وبدرُ الدُّجى في ظلمةٍ ليس ينجلي
وأبدتْ من الآياتِ كلّ عجيبةٍ ... وزُلزلتِ الأرضون أيّ تزلزُلِ

وللبوصيري قصيدة في وصف هذه النار ومدح الرسول سماها « تقديس الحرم من تدنيس الضرم »، مطلعها (٣):

إلهي على كلّ الأمور لكَ الحمدُ ... فليس لما أوليتَ من نعمٍ حدّ

---

(١) ذيل الروضتين ص ١٨٩.
(٢) تاريخ ابن الوردي ٢ : ٢٨١.
(٣) ديوان البوصيري ص ٦٣.

ها هي ذي أهم الدواعي التي فجّرت قرائح الشعراء ، فطفقت تسبّح بحمد رسول الله ، وتطوف حوله ، وتتمسّحُ بأعتابه ، وتسفح غزير العبرات شوقاً إلى رحابه ، ولهفة إلى سامق جنابه :

لقد توقّدت العاطفة الدينية أيام الحروب الصليبية وبدأ مديح الرسول (ص) يأخذ طريقه إلى الشعر العربي بشكل جلي وواضح ، وصار سمة من سمات هذا العصر ، ومن أظهر الأغراض الشعرية . وقد ذهب الدكتور علي صافي حسين إلى القول بأن المديح النبوي « فن استحدثه المصريون في القرن السابع إذ لم يكن له من قبلُ وجود لافي مصر ولا في غيرها من الأقطار العربية والإسلامية على الاطلاق »(١) . وتابعه الدكتور عمر موسى باشا فقال : « وأصبح — أي المديح النبوي — أحد الأغراض الشعرية المعروفة منذ أواخر العصر الأيوبي وأوائل العصر المملوكي »(٢) وإذا كان هذان الباحثان لا يعدان القصائد التي قيلت في الرسول منذ بعثته إلى القرن السابع للهجرة في عداد قصائد المديح من الوجهة الفنية ، فإننا وجدنا شعراً مستقلا بذاته في مديحة قيل العصر الذي ذكراه ، من ذلك قصيدة طوينة للإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت (ت١٥٠) مطلعها (٣) :

ياسيّدَ السادات جئتكَ قاصداً أرجو رضاك واحتمي بحماكا

ذكر فيها شيئاً من سيرة النبي (ص) وصفاته ومعجزاته ، ننقل منها هذه الأبيات لكي نرى فيما بعد مدى تأثر المتأخرين بها وبخاصة الإمام البوصيري الذي اشتهر بنظم المدائح النبوية في القرن السابع للهجرة :

لكَ معجزاتٌ أعجزَتْ كلَّ الورى وفضائلٌ جلّتْ فليس تحاكى

نَطَقَ الذراعُ بسمّه لكَ معلناً والضبُّ قد لبّاكَ حين أتاكا

والذئبُ جاءَكَ والغزالةُ قد أتتْ بكَ تستجيرُ وتحتمي بحماكا

وكذا الوحوشُ أتتْ اليكَ وسلّمتْ وشكا البعيرُ اليكَ حين رآكا

ودعوتَ أشجاراً أتتكَ مطيعةً وسمَتْ اليكَ مجيبةً لنداكا

---

(١) الأدب الصوفي في مصر في القرن السابع للهجرة ص ٢١٦ وكتاب ابن دقيق العيد — حياته وديوانه ص ١١٧.

(٢) الأدب في بلاد الشام ص ٤٩٨ ، ونقل هذا القول حرفياً الدكتور محمد كامل الفقي في كتابه الأدب في العصر المملوكي ص ١٣٤.

(٣) السمو الروحي في الأدب الصوفي ص ٤٢٦.

والماءُ فاضَ براحتيكَ وسبّحتْ صمُّ الحصى بالفضلِ في يمناكا
وعليكَ ظلّلتِ الغمامةُ في الورى والجذعُ حنَّ إلى كريمِ لقاكا
وشفيتَ ذا العاهاتِ من أمراضهِ وملأتَ كلَّ الأرضِ من جدواكا
وردَدْتَ عينَ قتادةٍ بعد العمى وابنَ الحصينِ شفيتَهُ بشفاكا
وكذا حبيبٌ وابنُ عفرٍ بعدما جرحا شفيتَهما بلمسِ يداكا
وعليٌّ من رمَدٍ بهِ داويتَهُ في خيبرٍ فشفي بطيبِ لماكا
وسألتَ ربكَ في ابنِ جابرٍ بعدما أنْ ماتَ أحياهُ وقد أرضاكا
ومسستَ شاةَ لأمِّ معبدَ بعدما نَشفَتْ فدرَّتْ منْ شفا رُقياكا
ودعوتَ عامَ القحطِ ربكَ معلناً فانهلَّ قَطْرُ السحبِ حينَ دُعاكا

ووجدنا قبل قيام دولة بني أيوب سنة ٥٦٧ للهجرة شعراً في مدح النبي (ص) من ذلك قصيدة علي بن محمد بن علي العمراني الخوارزمي (ت ٥٦٠) التي نظمها في صباه ومطلعها(١):

أضاءَ بنرقٍ وسجفُ الليلِ مسدولُ كما يهزُّ اليماني وهو مصقولُ

وقد صاغها معارضاً قصيدة «بانت سعاد» لكعب بن زهير في مدح الرسول (٢) ، وافتتحها متغزلاً بسعدى ، وواصفاً وجده وهيامه ودموعه الغزيرة ، مما يمكن أن يعدَّ من مظاهر المبالغة والإسراف في النعت :

مهما تذكّرتها فاضَ الجمانُ على خدّي حتى تجادُ السيفِ مبلولُ

وانتقل إلى جسمها فأدقَّ النظر في الأعضاء وتقاطيعها ، وأرهف النفس في البيان المحسوس والوصف المادي الملموس ، شأن الشعراء الذين كانوا يجرون وراء المرأة ، ويهيمون بهذا الضرب من الجمال ، ويتطلعون إلى النوال والوصال :

ظمأى الموشحِ ، ريّانٌ مخلخلها عبلٌ مؤزّرها ، والمتنُ مجدول
كأنّما هي إذْ ترخي ذوائبها بدرٌ عليها رواقٌ الليلِ مسدولٌ
كأنما شعرها در اذا ابتسمت وريقها سحراً بالراح معلول
ياحبّذا زمنٌ فيه نسرُّ بها وانشعبُ ملتئمٌ والحبلَ موصولٌ

---

(١) معجم الأدباء ٥ : ٤١٣.

(٢) يقول أبو جعفر الإلبيري في معرض حديثه عن هذه القصيدة : «هي حجة» الشعراء فيما سلكوه ، وملاك أمرهم فيما ملكوه . حدثني بعض شيوخنا بالإسكندرية بإسناده أن بعض العلماء كان لايستفتح مجلسة إلا بقصيدة كعب» نفح الطيب ٢ : ٦٨٨.

ثم تخلّص إلى مدح الرسول والحديث عن رسالته العظيمة التي بشّر بها الناس ، ومدح أصحابة الميامين الذي تحملوا معه أمانة هذه الرسالة ويبدو أن هذا الشاعر نظم شعراً كثيراً في مدح النبي (ص) اعتماداً على ماذكره ياقوت الحموي معقباً على هذه القصيدة : « ولهذا الإمام أشعارٌ من هذا النمط » . وثمة شعراء آخرون مدحوا الرسول في القرن السادس للهجرة منهم أبو حفص عمر بن الحسن بن المظفر النيسابوري (١) (ت٥٣٢) ، وأبو نزار الحسن ابن ابي الحسن صافي بن عبدالله (٢) (ت ٥٩٨) ، وصفوان بن ادريس (٣) (ت٥٩٨) :

فالمديح النبوي لم يكن — كما ذكر الباحثان — حكراً على القرن السابع وما تلاه ، فهو موجود منذ وجدت البيئات الزهدية ثم الصوفية من بعد (٤) ، ولكنه لم يكن بتلك السعة والشمول التي نلاحظها في القرن السابع ، أي بعد تمزق الدولة العباسية ، وتشتت شملها وتوالي هجمات الغرب الصليبي والشرق التتري .

لقد نظم عددٌ كبير من الشعراء قصائد عامرة في الرسول ( ص ) تناولوا فيها سيرته وما ينطوي فيها من أحداث مولده ورضاعته ونشأته وبعثته وكفاحه ومهاده ووفاته ، كما تناولوا الدين الإسلامي الذي هدى الناس وأخرجهم من ظلمات الجهل والضلال إلى نور العلم والهداية ثم افرغوا مافي نفوسهم من حسرات لاهبة وآهات حرّى .

وليس لنا — أمام ماتراه ملائماً للبحث الموجز — الا أن نعرّف بأشهر القصائدو نكشف عن بنيتها الفنية ، والموضوعات التي احتوتها واهتمت بها اكثر من غيرها.

كانت الغالبية العظمى من قصائد المديح النبوي ممهدّة بأبيات ، قد تطول أو تقصر تخلص إلى الغرض الأساس . وللشعراء مسالك شتى فيها ، وكان للغزل — بنوعيه المؤنث والمذكر — القدح المعلّى ، والنصيب الأوفر فالغزل بالمؤنث لايختلف في شكله ومضمونه عن الغزل الحسي الذي يتناول وصف مفاتن النساء ومحاسنهن واقبالهن وادبارهن وغنجهن ودلالهن...وما يعاني المحب من سهر وأرق وقلق وانتظار واشتياق ...وهذا اللون من الغزل غالباً ماتجده في مطالع القصائد التي نظمت معارضةً لقصيدة كعب بن زهير التي مطلعها :

---

(١) معجم الأدباء ٣ : ٢١٨ .

(٢) وفيات الأعيان ٢ : ٩٣ .

(٣) معجم الأدباء ٣ : ٢١٨.

(٤) أنظر المدائح النبوية لزكي مبارك ص ١٧ . ١٨ .

بانتْ سعادُ فقلبي اليوم متبـــولُ متيمٌ إثرهـا لم يفدَ مكبـــول

وقد ساهم عدد كبير من الشعراء بنظم قصائد على وزنها ورويها ومنهجها ، منهم محمد بن علي العمراني الخوارزمي (ت٥٦٠) وابن الساعاتي (ت٦٠٤) ومحيي الدين بن عبد الظاهر (ت٦٩٢) وشبيب بن حمدان (ت٦٩٥) وشرف الدين محمد بن البوصيري (ت٦٩٦) وأحمد بن عبد الملك العزازي (ت٧١٠) وفتح الدين ابن سيد الناس اليعمري (ت٧٣٤) وأبو حيان الأندلسي (ت٧٤٥) وابن نباته المصري (ت٧٦٨).

اعتزَّ المسلمون بقصيدة كعب بن زهير وتزارثوها وشرحوها وعارضوها وشطَّروها وخمَّسوها ، حتى قال المقري : «ولم تزل الشعراء من ذلك الوقت إلى الآن ينْسجون على منوالها ، ويقتدون بأقوالها ، تبركاً بمن أنشدتْ بين يديه ، ونُسب مدحُها إليه»(١).

ولو أمعنا النظر في هذا الغزل لوجدناه - في الأعم الأغلب - قريب المأخذ ، سهل المعنى ، قليل التلاعب اللفظي ، تكلله هالة من العفة والطهر والرزانة ، ماخلا قصيدة أبي حيان الأندلسي ، إذ تجاوز هذا الشاعر الحد المعقول ، وأسرف في كشف مفاتن الحبيبة ، وبيان سحر أعضائها ، وأوّل قصيدته (٢):

لاتعْذلاهُ فما ذو الحبِّ معذولُ العقلُ مختلٌ والقلبُ متبـــولُ

هزَّتْ له أسمراً من خوطِ قامتها فما انثنى الصب إلاّ وهو مقتولُ

ومنها :

فالثَّغْرُ مرمرةٌ ، والنَّشْرُ عنبرةٌ والثَّغْرُ جوهرةٌ ، والريقُ معسولُ

والطَّرفُ ذو غنَجٍ ، والعرفُ ذو أرَجٍ والخَصْرُ محتطفٌ ، والمتنُ مجدولُ

هيفاء ينبسُ في الخصرِ الوشاحُ لها درماء تخرسُ في الساقِ الخلاخيلُ (٣)

من اللواتي غذاهنَّ النعيمُ فما يَشْقَيْن ، آباؤها الصيَّدُ البهانيلُ

ويسترسل أبو حيان في هذا الغزل الحسي حتى يخلص منه إلى مدح النبي (ص) وهو - كما رأينا - يتناول أجزاء الجسد وتقاسيمه ويعرضه للسامع وكأنه نخاس يعرض جارية للبيع في سوق النخاسة.

ويطلع علينا الشهاب العزازي بقصيدة يمدح فيها النبي (ص) مطلعها (٤):

---

(١) نفح الطيب ٢ : ٦٨٩ .

(٢) ديوان أبي حيان الأندلسي ص ٤٦١.

(٣) درم الساق : استوى ، وامرأة درماء : لاتستبين كعوبها ومرافقها ، وكل ماغطاه الشحم واللحم خفي حجمه فقد درم .

(٤) فوات الوفيات ١ : ٩٤.

دمي بأطلال ذات الخال مطلولُ وجيشُ صبريَ مهزومٌ ومفلولُ

ويبدو على غزله التصنع والبرود وضعف التجربة الشعورية . ولا يكتفي بالمؤنث بل ينتقل فجأة إلى المذكر ، وهذا مالانعهده عند شاعر آخر . وغزله بالمذكر لا يتجاوز وصف القد والخد والريق والسالفة والأجفان :

كأنّه في تثنّيه وخطْرته غصنٌ من البانِ مطلولٌ ومشمولُ
سلافةٌ منه تسْبيني وسالفةٌ وعاسلٌ منه يصبيني ومعسولُ
وكلّما مرضتْ أجفانُ مقتلهِ يصحُّ إلاّ غرامي فهو منحولُ

إن التجاوز في التغزل والتشبيب ، والالتجاء إلى المذكر في مطالع القصائد ، والأفراط فيه ، قد جعل ابن حجة الحموي يقول : « ان الغزل الذى يصدر به المديح النبوي ، يتعيّن على الناظم أن يحتشم فيه ويتأدب ، ويتضاءل ويتشبب ، مطرياً بذكر سلع وسفح العقيق والعذيب والغوير ولعلع وأكناف حاجر ، ويطرح ذكر محاسن المرد ، والتغزل في ثقل الأرداف ، ورقة الخصر ، وبياض الساق ، وحمرة الخد ، وخضرة العذار ، وما أشبه ذلك (١) . فهذا القول أطلقه ابن حجة الحموي في معرض حديثه عن احدى نبويات ابن نباته المصري وحشمتها وبراعة استهلالها وهي(٢) :

صحا القلبُ لولا نسمةٌ تتخطّرُ ولمعةُ برقٍ بالغضا تتسعّرُ

وإننا نجد ابن نباتة المصري يساير الشعراء الآخرين الذين سبقوه في بناء قصائدهم المدحية ، ولا يختلف عنهم في تغزله ووصف غانيته الغيداء ، ذلك الوصف الذى يخرج عن مبادىء ابن حجة الحموي في صفات الغزل النبوي التي ذكرها آنفاً كما في قوله :

يروقكَ جمع الحسْن في لحظاتها على أنّه بالجفنِ جمعٌ مكسّرُ
من الغيد تحتفُّ الظبا بحجابها ولكنّها كالبدرِ في الماءِ يظهرُ
يشفُّ وراءَ المشرفيّةِ خدُّها كما شفَّ من دون الزجاجة مسْكرُ
ولا عيب فيها غيرُ سحرِ جفونها وأحببْ بها سحّارةً حينَ تسْحَرُ
إذا جرّدتْ من برودِها فهيَ عبنةٌ وإن جرّدتْ الحاظها فهيَ عنترُ

---

(١) خزانة الأدب لابن حجة الحموي ص ١١.

(٢) الديوان ص ١٨٠ .

وأين تضع قول ابن حجة الحموي تجاه نبوية ابن نباتة المصري التي عارض بها قصيدة كعب بن زهير التي يقول فيها (١) :

مسكيّةُ الخال ، أما وردُ وجنتها ... فبالحَنى من عيون الناس مبلول
فإن يفح من نواحي خدّها عبقٌ ... فالمسكُ فيه بماءِ الوردِ مجبولُ
تفترُ عن شنبٍ حلوٍ لذائقهِ ... في ذكره لمجاجِ النحلِ تعسيلُ
مصحح النّل عن شهدٍ وعن بردٍ ... لأنه منهلٌ بالراح معلولُ

ويبدو أن إعجاب ابن حجة الحموي بشعر ابن نباته المصري أنساه مافيه من غزل حسي، تناول فيه وصف مفاتن المرأة وتجسيد صور الحسن فيها ، وإلقاء الظلال الخميلة عليها.

أما الغزل بالغلمان أو بالمرد كما قال ابن حجة الحموي فهو قليل اذا ماقيس بحجم الغزل بالمؤنث ، وهو لايهبط — كما بدا لي — إلى الدرك الأسفل من الرذيلة ، ولا يسقط في مهاوي الفجور كما هو الحال عند الشعراء المشهورين بالمجون والشذوذ . واليك منه هذا الأنموذج للشاب الظريف ( ت ٦٨٨هـ) في مطلع قصيدة يمدح بها النبي (ص) ، يذكر فيه قسوة قلب المحبوب وعدم مبالاته بما يعاني المحب من سهر وقلق (٢) :

هذا الذي أحبّه ... قاسٍ عليّ قلبُه
نامَ ولم يعلم بما ... باتَ يُقاسي صبُّه
واعجباً كم عاج بي ... دلالُه وعجبُه
آهاً لمضنى والهٍ ... لم يدرِ كيف ذنبُه

والمذهب الثاني في ابتداء القصائد المدحية هو الشبيب بالديار الحجازية ، وذكر معالمها ، او الحنين اليها ، والتشوق إلى ساكنيها ، والبكاء على قطنيها ، ووصف الإبل الضامرة ، وحديث السُّرى ، والماهل والنباتات والمواضع التي تقع على امتداد الطريق ، والريح والبرق والرعد والغيث وكل الظواهر الطبيعية التي تراها العين ... ثم الدعاء للمسلمين ولأوطانهم بالعمران والازدهار والبقاء والنجاة من كل باغ وآثم ... وقد وجدنا مثل هذه المطالع عند عدد من من الشعراء امثال : فتيان الشاغوري(٣) ، ومحمد بن حمزة بن معد(٤) ، والامام الصرصري(٥)

(١) الديوان ص ٣٧٢ .
(٢) ديوان الشاب الظريف ص ٤٣ .
(٣) ديوان فتيان الشاغوري ص ١٠٨ .
(٤) الطالع السعيد ٥١٨.
(٥) مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني ص ٢٧٤.

وابن جبير الأندلسي (١) وداود بن عيسى الأيوبي (٢) ، وأحمد بن عبد القوي الربعي (٣) وكمال الدين ابن الزملكاني (٤) ، وابن دقيق العيد (٥) ومحمد بن محمد بن عيسى النصيبي (٦) وضياء الدين علي بن محمد الغرناطي السكندري (٧) ، ومحمد بن احمد بن عبد الرحمن (٨) ، والبوصيري (٩) ، وعدد كبير من شعراء الأندلس والمغرب الذين نأت أوطانهم عن المشرق (١٠). ويعد البوصيري فارس هذا الميدان وبخاصة في قصيدته المعروفة بالبردة ، أو الكواكب الدرية في مدح خير البرية التي مطلعها :

أمنْ تذكّرِ جيرانٍ بذي سلمٍ  مزجتَ دمعاً جرى من مقلةٍ بدمِ
أم هبتِ الريحُ من تلقاءِ كاظمةٍ  وأومضَ البرقُ في الظلماءِ من إضمِ

وهي من أشهر قصائده ذيوعاً وانتشاراً(١١) لما امتازت به من قوة الأسلوب وحسن الصياغة وجودة المعاني وجمال التشبيهات وروعة الصور ، يضاف إلى ذلك مانسج حولها بعضُ المعجبين بها وبخاصة المتصوفة من قصص ، من ذلك ان البوصيري لما أنشدها أمام الرسول في منامه ووصل إلى قوله : فمبلغ العلم فيه أنه بشرٌ» توقّفَ ، فقال له النبي : قل يا إمام فقال البوصيري : اني لم اوفق للمصراع الثاني ، فقال النبي : قل يا إمام : وانه خير خلق الله كلهم ». فأودع البوصيري هذا المصراع في قصيدته ، وهذا اختلاق وبهتان على البوصيري

---

(١) ابن جبير شاعراً ص ٤٩٧ .
(٢) ديوانه – مخطوطة أيا صوفيا ص ٧٤.
(٣) الطالع السعيد ص ٩٩.
(٤) فوات الوفيات ٤ : ٩.
(٥) ابن دقيق العيد، حياته وديوانه ص ١٣٩.
(٦) الطالع السعيد ص ٦١٣
(٧) الأدب الصوفي في مصر ص ٤١١.
(٨) الأدب الصوفي في مصر ص ٤١٦.
(٩) ديوان البوصيري ص ٢٠١.
(١٠) نفح الطيب ٧ : ٤٣٢ – ٥١٧.
(١١) انظر شرح البردة ص ١١ – ٢٩.

الذي أخذ هذا الشطر من الإمام الصرصري الشاعر المشهور بالمدائح النبوية (١) المتوفى سنة ٦٥٦ للهجرة في قوله :

محمدٌ خيرُ خلقِ اللهِ كلّهمِ وهو الذي لفخار المجدِ ينتسبُ

تقع البردة في اثنتين وثمانين ومئة بيت وقد استأنس — كما يبدو — عند نظمها بميمية ابن الفارض التي مطلعها (٢):

هل نارُ ليلى بدَتْ ليلاً بذي سَلَمِ أم بارقٌ لاح في الزوراءِ فالعَلَمِ

وبميميتي الإمام الصَّرْصَري (٣) الأولى مطلعها :

هذي تهامةُ فاحبسْ غيرَ متهمِ واعلمْ بأنّ الهوى عن يمنةِ العَلَمِ

والثانية مطلعها :

أمط جلالَ السُّرى ياحاديَ النعمِ رفقاً فهذا مقيلُ الروح والنعمِ

ولابد من التنويه بأن شعر الحنين إلى أرض الحجاز والأماكن المقدسة وذكر معالمها ومباهجها ومادبّ فيها من إنسان وحيوان، ومانبت فيها من شجر وزرع لم يكن من ابتداع هؤلاء الشعراء الذين ذكرتهم، بل سبقهم شعراء كثيرون منذ زمن الشريف الرضي. واشتهر بذلك أيضاً عيس بن صنجر الإربلي المعروف بالحاجري (ت٦٣٢هـ) نسبة إلى حاجر، إحدى المواضع الحجازية التي تغنّى بها وأكثر من ذكرها في شعره (٤).

لقد استساغ الشعراء هذا اللون في مطالع قصائدهم المدحية لحبهم وشوقهم إلى النبي(ص) الذي ضمته تلك الديار كما عبّرَ عن ذلك ابن دقيق العيد (٥):

---

(١) وصلت إلينا نسخ عديدة من مخطوطة ديوانه منها في مكتبة أوقاف الموصل — خزانة حسين باشا ١٩ ١٣ ، برلين ٧٧٥٩، جوتا ٢٢٧٢، نور عثمانية ٣٨٨٧، الأسكوريال ثان ٤٦٦ لاله لي ١٧٧٣، أيا صوفيا ٤٨٧٨، عاشر أفندي ٩٧١، أسعد افندي ٢٧٩٨، القاهرة ثان٣ : ١٣٦، الظاهرية ٨٤، دمشق عمومية ١٠١، ١٣، آصفية ١ : ٧٠٢ رقم ١٦ وفي المجمع العلمي العراقي مصورة عن تونس رقم ٢٥٤م. وانظر الشعر العربي في العراق من سقوط السلاجقة حتى سقوط بغداد ص ٢٧٢ .

(٢) ديوان ابن الفارض ص ١٢٨.

(٣) الشعر العربي في العراق من سقوط السلاجقة حتى سقوط بغداد ص ٢٧٣.

(٤) لديوانه طبعتان: الأولى سنة ١٢٨٠ بمصر (طبع حجر)، والثانية بمطبعة شرف بمصر سنة ١٣٠٥ (طبع حروف).

(٥) ابن دقيق العيد — حياته وديوانه ص ١٥٤.

تهيم نفسي طرباً عندما أستملحُ البرقَ الحجازيا
ويستخف الوجد عقلي وقد أصبحَ لي حسن الحجازيا
ياهل أقضي حاجتي من مُنىً وأنحرُ البزل المَهاريا
وارتوي من زمزم فهي لي ألذ من ريق المهاريا

ويتخلل بعضَ مطالع الحنين والشوق إلى الديار الحجازية وصفَ الابل التي نقلتْهم وما تعاني من تعب ومشقة في مضارب الصحاري : من ذلك هذه الأبيات من قصيدة لعمر ابن عبد النصير الحريري (ت٧١١هـ) الذي أبدع في تصوير حالتها وهي تدب في سيرها وتسعى وهي تحمل أثقالها للوصول الى مثوى حبيب المسلمين محمد (ص) (١):

ما لمطايانا تميلُ مالَها أظنُّ رملَ رامةٍ بدالَها
لاتحسبنَّ ميلَها عن ملل وإنما سُكرُ الهوى أمالَها
وربما كلت ، ولكن شوقُها يمنعُها أنْ تشتكي كلالَها
وكلُّ صعبٍ في سُراها هيّنٌ لاسيما إنْ بلّغت لَها
تُبدي نشاطاً عندما يُطلقُها حابسُها بحلهِ عقالَها
تجدُّ وجداً في الحزون كلّما تذكّرتْ من يثرب أطلالَها
وان حدى الحادي بذكر طيبةٍ هيّجَ ذكرُ طيبةٍ بلبالَها
فشوقها يسوقها حتى ترى آمالَها هناك أو آجالَها
تُرى أراني زائراً مغازلاً أقصدُ من كلِّ الورى نُزّالها
فيها أجلُّ مرسلٍ لأمّةٍ كانت ترى رشادَها ضلالَها

فالمطايا لايقل شوقها الى يثرب ومن فيها عن شوق راكبيها وحُداتها ، فهي لاتكلُّ ولا تملُّ ولا تشتكي : تستسهل الصعب ، وتستهين بالحزون والشعاب من أجل أن تحطَّ رحالَها عند أجل مرسل ، واكرم نبي وأهدى مبعوث .

وهناك مذهب ثالث سلكه فريق من الشعراء في مطالع المدائح النبوية ، وهو التوجه الى المسلمين باللوم والتقريع أو بالنصح والأرشاد وبيان مضار الغواية والضلال والأعمال المشينة والعواقب الوخيمة التي تنتظر الخارجين عن جادة الصواب والحساب العسير الذي

---

(١) الطالع السعيد ص ٤٤٦ ، وانظر الأدب في العصر المملوكي ١ : ٢٤١.

صيلاقونه ان هم تمادوا في أضالهم الضالة . من ذلك ما جاء في لامية البوصيري التي مطلعها

الى متى أنتَ باللذات مشغولُ  وأنت عن كلِّ ما قدّمتَ مسؤول
في كلِّ يومٍ تسرجي أنْ تثوبَ غدا  وعمدُ عزمك بالتسويف مخذولُ

ومنها :

فجرِّد حبالَ الأماني التي اتصلتْ  وانما حبلُها بالزور موصول
أنفقتَ عمرك في مالٍ تحصّلهُ  وما على غير إثمٍ منكَ تحصيل

ان الكثير من قصائد المديح النبوي تبدأ بواحد من التمهيدات السابقة ، والقليل يخلو منها ، وبخاصة القصائد القصيرة والمقطوعات كما هو الحال عند الصاحب شرف الدين الأنصاري (ت٦٦٢هـ) حيث نجد في ديوانه عدة نبويات تبدأ بالمديح مباشرة(٢) ، يظهر عليها التصنّع والعناية بالصنعة اللفظية والمعنوية ، حتى انه بنى قوافي إحداها على لزوم مالا يلزم منها

جلّ ربعاً بطيبةٍ حلّ فيه  خيرُ حالٍ بسؤددٍ وعفافِ (١)
حجراتٍ كم للملوكِ والأمـ  ـلاكِ فيهنّ من حفاً واحتفافِ
صانهُ ذو الجلالِ من الدنيا  مُصطفى من جوهرٍ شفّافِ

بعد أن عرضنا المقدمات وألوانها في اشهر القصائد التي تناولت مدح الرسول ، ننتقل الى متون هذه القصائد لنرى مضامينها وكيف عالجها الشعراء : فأول ما يطالعنا منها هو الغزل بذات الرسول وذكر حسنه وبهائه وجماله وصفاته وسحر عيونه ورموشه وثغره وطيب أريجه وحلو حديثه وبشر وجهه وطلاقته .. من ذلك قول البوصيري : (٣)

نبيٌّ كاملُ الأوصافِ تمّتْ  محامدُه فقيل له الحبيبُ
وصفتُ شمائلاً منه حساناً  فما أدري أمدحٌ أم نسيبُ ؟

وتناول الإمام الصرصري في أحدى نبوياته ، وبأسلوب شيق جذاب ، نعت النبي ونوره الساطع ، وحسن شعره ، وبريق ثغره ، وطيب نشره :

---

(١) ديوان البوصيري ص ١٧٢
(٢) ديوان الصاحب شرف الدين الانصاري ١٤٢، ٣٢٧، ٣٢٧، ٥٣٥، ٥٥٨.
(٣) طيبة : وهي اسم المدينة الرسول (ص) يثرب (معجم البلدان ٤ : ٥٣).
(٤) ديوان البوصيري ص ٣٥.
(٥) فوات الوفيات ٤ : ٢٩٩.

أوجهك أم ضوءُ الصباح تبلجا ... أم البدر في برج الكمال جلا الدُّجى
أم الشمسُ يوم الصحو في برج سعدها ... وفرعُك أم ليل المحب اذا سجا
وبرقٌ سرى أم نورُ ثغرك باسماً ... ونشرُكَ أم مسكٌ ذكيٌّ تأرّجا
أتتكَ جنودُ الحسن طوعاً بأسرها ... فصرتَ مليكاً في الجمال متّوجاً
فأضحت أبيّاتُ القلوبِ أسيرةً ... لديكَ فلم يملكن عنك معرّجا
فطوبي لعبدٍ أنتَ سيده لقد ... سما بين أرباب البصائر والحجى

لقد هام هذا الشاعر حباً في النبي (ص) وشغف به شغفاً لانجده عند كبار الشعراء المحبين حتى قال عنه ابن خلكان : «لا أعلم شاعراً أكثر من مدائح النبي — صلى الله عليه وسلم — أشعر منه ، وشعره طبقه عالية» (١) . يقول في قصيدة أخرى (٢) :

يامن ثوى بينَ الجوانح والحشا ... منّي وإن بعدت عليَّ ديارُه
عطفاً على قلب بحبّكَ هائم ... إنْ لم تصله تصدّعتْ أعشارُه
وارحمْ كئيباً فيكَ يقضي نحبه ... أسفاً عليك وما انقضتْ أوطارُه
لايستفيقُ من الغرامِ وكلّما ... حجبوك عنه تهتّكتْ أستارُه

وكان المسلمون في العصور المتأخرة يقبلون على سماع الغزل في ذات النبي إقبالاً كبيراً وشاع في أوساط العامة شيوعاً واسعاً ، وردّدوه في الموالد النبوية ، وتغنوا به ، مما دعا بعض علماء الدين الى انكاره فقال صاحب المجموعة النبهانية في المدائح النبوية : «وأقبح من التشبيب بالنساء والولدان في ذلك ما يستحسنه بعض الجهّال القاصرين من سماع الأشعار المشتملة على المعاني الغزلية في وصف الذات الشريفة المحمدية مما يأباه كل ذي طبع سليم ، ولا يستحيله الاّ كلٌّ ذوق سقيم . وقد أدخلوا بعض تلك الأشعار في قصة المولد الشريف المنسوبة الى بعض العلماء ، وصارت تقرأ في مجالس العوام فلاتنكر ، وذلك من اقبح المنكر فليتجنبْ سماعه وليحذر . ومن ذا الذي يستحسن أن يتغزّل به أو بأبيه أو برجل جليل من قومه أو ممن يعتقدهم ويجلّهم من العلماء والأوليات وغيرهم من الأكابر والأجلاء كما يتغزل بالولدان والنساء ؟ لاشكّ ان ذلك لايستحسنه أحد من الفضلاء» (٣) .

---

(١) فوات الوفيات ٤ : ٢٩٨.

(٢) فوات الوفيات ٤ : ٣٠١ .

(٣) الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي ص ٢٥٣

ومنهم من تناول مولد الرسول ونشأته وبعثته وإسرائه ومعراجه وجهاده ومعجزاته وما ظهر عند مولده وعند بعثته . ويكاد يكون البوصيري من أكثر الشعراء توسعاً وتفصيلا في هذه المضامين . ففي قصيدته الهمزية (٤٥٦بيتاً) التي مطلعها (١) :

كيف تَرْقى رقيّكَ الأنبيـــاء  يا سماء ما طاولتها سمـــاءُ

ذكر مولد النبي (ص) ورضاعته وما وهب الله حليمة السعدية من خير وبركة ، وأخلاقه واخلاصه ووفاءه وزواجه من خديجة ، وبعثته ونزول جبريل عليه ، ودعوة الناس الى الاسلام ، وكفاحه وصموده في مكة ، ثم خروجه الى المدينة واستقبال الأنصار له ، وانتصاره على المشركين والمكابرين ، ومحاربته لليهود ، وذكر معجزاته . من ذلك قوله :

كلُّ فضلٍ في العالمين فمن فضـــ  ـل النبيِّ استعاره الفضـــلاءُ
شُقَّ عن صدرهِ وشُقَّ له البدرُ  ومنْ شرطِ كلِّ شرطٍ جزاءُ (٢)
ورمى بالحصى فأقصدَ جيشاً  ما العصا عنده وما الإلقـــاء
فاستهلّتْ بالغيثِ سبعةَ أيا  م عليهم سحابةٌ وطفـــاءُ

وفي قصيدته اللامية( ٢٠٤ بيتاً ) ذكر بعض ما حدث حين ولد ، من ذلك خمود نار فارس وانجماد نهرهم واهتزاز صرح ملكهم :

كم آيةٍ ظهرت في حين مولده  به البشائر فيها والتهاويـــلُ
ونار فارس أضحت خامدة  ونهرهم جامد والصَّرْحُ مشلولُ

وفي قصيدته المعروفة بالبردة تحدّث عن مولد النبي ، وذكر أن إيوان كسرى انصدع ، وان نار الفرس خمدت ، وان بحيرة ساوة غاضت ، وان الشهب انقضت فوق الأصنام ؛ ثم أعقب ذلك حديثاً عن المعجزات ، فذكر سجود الأشجار للرسول ، ومشيها إليه ، وسير الغمامة أنى سار لتقيه الهجير ، وما صنع الحمام والعنكبوت بالغار ، وكان لمس راحته يبريء المريض ، ويشفي من الجنون ، وكيف كانت دعوته ترسل الأمطار في السنة الجدباء.

---

(١) ديوان البوصيري ص ١ .

(٢) شرط : الشق ، والجزاء مايجزي به ، وفي كل منهما تورية.

لقد استوعب البوصيري السيرة النبوية، ونقل جزءاً كبيراً منها في شعره، وصاغه بأسلوب ميسور كي يسهل فهمه وحفظه وترديده. وأضاف إلى ما أخذه عن السيرة أخباراً لا تعرف كما يقول الدكتور زكي مبارك : «متى نشأت عند المسلمين . وأغلب الظن أنها من وضع القصاص الذين أرادوا أن يُصوّروا مولد الرسول بالصور التي أثرت عن أنبياء الهنود. وقد أكثر مؤرخو المولد النبوي من هذه الأخبار، وطاف بها جمهور الناظمين في المدائح النبوية» (١). ووجدتْ «فئة من الناس كانت تحفظ كثيراً من هذه المدائح وتطوف في البلاد تغني بما تحفظ وهي تضرب على العود والقيثارة وغيرهما مما يصلح في هذا المقام، وتجمع الصدقات، فلا عيش لها إلاّ من هذا العمل ، ولا ربح لها إلاّ من التغني بمدائح الرسول» (٢).

وهكذا تحولت المدائح النبوية عند فريق من الشعراء إلى تاريخ منظوم للسيرة النبوية يتلى في المحافل الدينية، أو في مناسبات خاصة مثل : نجاة من أزمة أو كارثة . او حالات فرح مثل : عودة من حج، او زواج ، او ختان ، أو بناء دار ، أو شفاء من مرض، أو اعتلاء منصب... أو حالة حزن مثل : موت شخص أو ذكراه . ومثال ذلك قول الشهاب محمود بن سلمان الحلبي من قصيدة (٣) :

حملتكَ آمنة الحصان فلم تجد ... عبئاً كعبء الحاملات ثقيلا
وولدت مختوناً وذلك آية ... لا تقبلُ التأويلَ والتعليلا
ورأت لك الأحبار والرهبان في الـ ... توراة وصفاً طابقَ الإنجيلا
واستبشروا بكَ إذ ظهرت وبشروا ... الاّ قليلاً حرّفوا ما قيلا

وبعد هذا الحديث عن ولادته، وما ورد له في التوراة والإنجيل من ذكر، يأتي على بعض علامات نبوته التي مرّ ذكرها عند البوصيري، وهي خمود نار الفرس وانحسار الماء عن بحيرة ساوة وانكسار إيوان كسرى :

وخمود بيت النار من آياتك الـ ... لاتي ترد الطرف عنك كليلا
وكذا بحيرة ساوة غارت وقد ... كانت جوانبها تفوت الميلا
وكذلك الإيوان أعظم معجز ... بهر العقول وحيّرَ المعقولا

---

(١) المدائح النبوية ص ١٨٩ .
٢) الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي ص ٢٥٢ .
(٣) المصدر السابق ص٢٥١ .

وينتقل إلى رضاعته والبركة التي انهالت على حليمة السعدية، ونشأته، ونُبوّته، ومعجزاته ونضاله، ومواقفه مع المشركين واليهود...

إن هذا الشاعر لم يضف شيئاً جديداً على ما جاء به البوصيري في شعره، ولم يرق إلى لغته، وطريقة عرضه للسيرة النبوية.

لقد كان حديث المعجزات جزءاً من مادة المديح النبوي في كثير من القصائد، حتى إن عبد الرحمن بن عبد الوهاب بن خلف (ت٦٩٥هـ) سماها في إحدى مدائحه بالخوارق(١)

هل جاء قبلك مرسل بخوارق إلاّ وجئت بمثله أو أزيد

فخوارق النبي في نظره فاقت خوارق إخوانه الأنبياء وتجاوزت عليهم. ويسميها محمد بن محمد بن عيسى الشيباني (ت ٧٠٧هـ) بالبراهين بعد أن ساق عدداً منها في قصيدة له (٢) :

عجبت لمن يتعامى عن الـ براهين، وهي من الشمس أجلا

وقد ولّدت الحروب الصليبية صراعاً عنيفاً بين المسلمين من جهة والمسيحيين واليهود من جهة أخرى، وتجلّى أثر ذلك في الشعر وبخاصة عند البوصيري الذي حاول ان يفنّد مزاعمهم ويبطل دعاواهم ويناقشهم ويقيم الحجة عليهم. من ذلك أنه جادلهم في إنكار نبوّة محمد (ص) مع أن التوراة قد بشر به وكذلك الانجيل (٣) :

إن أنكرتْهُ النصارى واليهودُ على ما بيّنَتْ به توراةُ وانجيلُ

فقد تكرَّرَ منهم في جحودهم للكفرِ كفرٌ وللتجهيل تجهيلُ

ويمضي البوصيري في القصيدة نفسها مخاطباً النصارى : إن اليهود تكرَّرَ منهم الكفر والجحود، فكفروا بعيسى ثم كفروا بمحمد، وأنتم قلدتموهم في الكفر، ومع أنكم صدقتم توراتهم فأنهم كذّبوا إنجيلكم. وفي همزيته خاطب النصارى أيضاً وقال لهم : لو جحدنا انجيلكم كما جحدتم قرآننا لاستوينا (٤) :

---

(١) الأدب الصوفي في مصر ص٣٧٩.

(٢) الطالع السعيد ص٦١٧.

(٣) ديوان البوصيري ص١٧٨.

(٤) ديوان البوصيري ص١٣.

قـوم عيسى عاملتـم قومَ موسى بالذي عـاملنـكـمُ الحُنفاءُ (١)
صدَّقـوا كتبكمُ وكذَّبتـمْ كتـ ـبهُمُ إنَّ ذا لبئـسَ البَـــواءُ (٢)
لو جَحدنـا جحودكم لاستوينـا أوَ للحـقِّ بالضَّـلالِ استواءُ
ما لكـــم إخـــوة الكتاب أنـاسـاً ليس يُرْعى للحقِّ منكم إخـاءُ

لقد تحوّل جزء من المديح النبوي الى الرد على الخصوم ومناقشتهم، وافحامهم ودحض آرائهم وتسفيه أقوالهم .

واتخذ بعض الشعراء من المدائح النبوية ذريعة للتحدث عن حـــال العرب بعد أن استبد الأعاجم بمقاليد الأمور وسيطروا على مرافق الحياة العامة ، من ذلك ما قاله الشاب الظريف (ت ٦٦٨هـ) في احدى نبوياته (٣):

أرضُ الأحبّةِ من سفـح ومن كُثُب سقاك منهمـر الأنواء مـن كَثَبِ
ولا عدت أهلك الناثين من نفس الـ صبا تحيّة عاني القلب مكتئـب
قوم هم العـرب المحميُّ جارهـم فـلا رعى الله إلاّ أوجه العـــرب
أعزّ عنـدي من سمعي ومن بصري ومن فؤادي ومـن أهلي ومـن نسبي
لهم عليَّ حقـوق مـذ عـرفـتهم كأنّني بيـن أُم منهـم وأب
إن كان أحسن مـا في الشعر اكذبه فحسن شعري فيهـم غير ذي كذب
ياساكنـي طيبة الفيحـاء هـل زمن يدنـي المحبَّ لنيل السؤل والأرب ؟
أرض مع الله عين للشمس تمرثـها فأن تغـب حرستها أعين الشهـب

ومن الأُمور البارزة التي نلاحظها في بعض المدائح النبوية ، خاصة في البيئات الصوفية هي فكرة الحقيقة المحمدية أو النور المحمدي التي «تقوم على الاعتقاد بأنّ أول ماخلق الله محمداً ، فأعلمه النبوّة وبشّره بها، ثم خلق بعده آدم على صورته ، وخلق العرش والنور والأولياء من النور المتكاثف ، فكان هذا الخلق أدنى من خلق محمد إلاّ أن فيه جوهره ، وانتهى الزمن في جريانه فظهر محمد بكليته جسماً وروحاً، وقد كان الحكم لـه باطناً في جميع ماظهر من الشرائع على أيدي الأنبياء والرسل» (٤)

---

(١) الحنفاء : المسلمون. يقول :ن المسلمين صدقوا كتبكم وكذبتم كتبهم.
(٢) البواء: المكافأة.
(٣) ديوان الشاب الظريف ص ٥٦.
(٤) الشعر العربي في العراق ص ٢٧٨. وانظر الصلة بين التصوف والتشيع ص ١٤٩.

وقد ظهرت ملامح هذه الفكرة التي تشير إلى قدم الحقيقة المحمدية عند الكثيرين ، منهم الإمام الصرصري حيث يقول في إحدى نبوياته (١):

وأتم خلق العرش خلقاً باهراً ... فغدا من الإجلال ذا رجحان
كتب الإله عليه اسم محمد ... فوق القوائم منه والأركان
فسرى للسكون به وقد كتب اسمه ... في جنة المأوى على الأغصان
وخيامها وقبابها وعلى مصاريع القصور تفصل المتنان
فلذاك آدمُ حين تاب دعابه ... متوسلاً فأجيبَ بالغفران

ومن الشعراء الذين ظهرت هذه الفكرة في شعرهم بجلاء السيد البدوي (ت ٦٧٥هـ) وابراهيم الدسوقي (ت ٦٧٦هـ) وضياء الدين الفرناطي (ت ٦٨٦هـ) :

وقد بالغ بعضهم في حقيقة نبوّة محمد (ص) ونسج حولها كثيراً من التهويلات والمغامرات الخيالية ، فلولاه «ماظهر شمس، ولا قمر ، ولا نجوم ، ولا أنهار ، ولا ثمار ، ولا شجر ، ولا بدر ولا جبال ، ولا غير ذلك (٢) » من ذلك قول ابن نباته المصري (٣):

لولاه ماكان أرض ولا أفق ... ولا زمانٌ ولا خلقٌ ولا جبلٌ
ولا مناسك فيها للهوى شعبٌ ... ولا ديارٌ بها للوحي تنزيلٌ

ويرى البوصيري أن محمداً دان الأنبياء قبل أن يخلق (٤):

وكلُّ آي أتى الرسلُ الكرامُ بها ... فإنما اتصلتْ من نوره بهمِ
فإنه شمسُ فضلٍ همْ كواكبُها ... يُظهرْنَ أنوارها للناسِ في الظُّلَمِ

وانظر في قول ابن الساعاتي (٥) :

لولاه لم تلك شمسٌ ولا قمرٌ ... ولا الفراتُ وجاراها ولا النيلُ
ولم يجب آدمٌ في حال دعوته ... نعم ولم يلك قابيل وهابيلُ

فهذا الغلو لايفهم إلاّ إذا عرفنا بأنه يرجع إلى أصل من أصول التصوف وهو القول بـ «الحقيقة المحمدية» ، إذ كان تمجيد عدد من المتصوفة البالغ للرسول أساساً في تمجيدهم وغلوائهم في الخالق العظيم (٦) :

---

(١) مطالعات في الشعر المكوكي ،الشماني ص ٣٧٣.
(٢) ديوان البوصيري ص ١٩٤
(٣) ديوان ابن الساعاتي ص٤٩.
(٤) انظر تفاصيل ذلك في التصوف الإسلامي لزكي مبارك ١ : ٢٦٨.

لقد وقفنا من خلال عرضنا السابق على أهم المضامين التي احتوتها القصائد. وننتقل الآن إلى خواتيمها وأهم ماحفلت به من المعاني .

رانت الأحزان على القلوب في عصر الحروب الصليبية ، وثقلت وطأتها، بعد أن عجز المسلمون في كثير من الأحيان عن دفع الضر الذي أناخ بكلكله عليهم . فالتجأوا إلى رسولهم متضرعين أن يزيل هذا الضر ويعمهم برحمته وينزل عليهم صيباً من نعمائه ، ويغفر عن زلاتهم وما اقترفت ألسنتهم من سوء وما قدّمت أيديهم من شائن الأعمال . فها هو ذا الشاب الظريف يستغيث بشفيع الورى محمد (ص) أن يخلّصه من ذنوبه التي تعاظمت(١):

فيا خاتمَ الرُّسلِ الكرام ومَنْ به ... لنا منْ مهولاتِ الذنوبِ تَخَلُّصُ
أغثنا أجرْنا من ذنوبٍ تعاظمتْ ... فأنتَ شفيعٌ للورى ومُخَلِّصُ

ويتأمّل فتيان الشاغوري من خير الأنام شفاعة يكسب بها نعيم الخلد وظلّه الوارف(٢):

أومّل من خيرِ الأنامِ شفاعةً ... بها في نعيمٍ بالجنانِ أُخلَّدُ
فأنتَ رسولُ اللهِ وهي شهادةٌ ... أُقرُّ بها حتى المعادِ وأشهدُ

وقصد ابن الزملكاني الرسول كي يخفف عن نفسه هم الذنوب التي أصبحت لاتفارقه ، وسأله العصمةَ فيما بقي من عمره، ونعمةً كافية تقيه ذلّ السؤال: (٣)

ها قد قصدتك أشكو بعض ماصنعت ... بي الذنوبُ وهذا ملجأ الشاكي
قد قيدتني ذنوب عن بلوغ مدى ... قصدي إلى الفوز منها فهي أشراكي
فاستغفر الله لي واسأله عصمته ... فيما بقي وغنىً من غير إمساك

وغلب على شعر المتصوفة الذين ازدحمت بهم التكايا والزوايا آنذاك هذا الطابع ، وهو البكاء من ثقل الأوزار وطلب الصفح والعفو والمغفرة . كما في شعر علي بن عبدالله التشتري (ت ٦٦٨هـ) الذي تميز بالسهولة والليونة والانحدار نحو العامية ، خاصة في أراجيزة وأزجاله التي غطت على جزء كبير من ديوانه . من ذلك أرجوزته التي افتتحها بالأبيات المشهورة التي أنشدها الأنصار حين استقبلوا النبي (ص) على مشارف المدينة (٤):

---

(١) الديوان ص١٥٤ وانظر السمو الروحي في الأدب الصوفي ص ٣٣٦.
(٢) ديوان فتيات الشاغوري ص ١٠٨.
(٣) فوات الوفيات ٤ : ٩.
(٤) ديوان ابي الحسن التشتري ص ٤٤٠.

أقبـــــلَ البـدرُ علينـــا  من ثنيـــاتِ الـــــــوداعْ
وجـــب الشكـــرُ علينا  مـــــــا دعـــا للـــهِ داع
أيُّهـا المبعـــوثُ فينـــا  جئـتَ بالأمـــرِ المطـــــاعْ
أقبـــلَ البـــــدر علينـا  واختفـت منـــه البـــــدورْ
مثـلَ حسنكَ مارأينـــا  قـطّ ياوجـه الســـــرورْ
أنـتَ شمـسٌ أنـتَ بـــدر  أنـتَ نـورٌ فـوقَ نـــورْ

واسترسل على هذا الإيقاع في بيان محاسن النبي (ص) ثم انتقل إلى الدعاء والاستغفار.

واختتم فريق من الشعراء قصائدهم بالصلاة والتسليم على النبي (ص) وآله وأصحابه من ذلك قول محمد بن أحمد بن عبد الرحمن (١) :

صلّى عليـكَ اللهُ ماسطـل الحيا  وسرى النّسيمُ ومالت الأغصانُ
وعلى صحابتكَ الذيـن أتـاهمُ  من ذي الجـلالِ النّصرُ والرّضـوانُ

وقول عبد الرحمن بن عبد الوهـاب (٢) :

صلـوات ربك والســلام عليك ما  حُيّيتَ من متوجهٍ متعبدِ
وعلى صحابتك الكرام وآلك الـ  براءِ من قول الجهول المفسدِ
وعلى ضجيعك اللذين تشرّك  بالقرب منك بمقعـد وبمرقـدِ

لقد وقف الكثيرون (٤) – وبقلوب خاشعة – بباب رسولهم مصلين عليه ومسترحمين، وطالبين أن يفرّج عنهم كلَّ كرب كما يقول محمد بن محمد بن عيسى الشيباني (٣) :

وقفنـا ببابـك نشكـو إليـك  من الكرب والكرب قد عمَّ كُـلاّ
وأنّـى نظـرتَ لنـــا نظـرةً  تلاشى بها كربُهنا واضمحـلاّ

وهكذا حظيت المدائح النبوية في عصر الحروب الصليبية باهتمام كبير من لدن عامة المسلمين، وعدوها إحدى الوسائل التي تنجيهم من المصائب والويلات، وتجنبهم أذى

---

(١) الطالع السعيد ص٤٩٣.
(٢) فوات الوفيات ٢ : ٢٨١.
(٣) انظر السمو الروحي في الأدب الصوفي، الصفحات ٢٧٨، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٩٩، ٢٩٤، ٣٠٢، ٣٤٧، ٣٧٠، ٣٧٢، ٣٧٦.
(٤) الطالع السعيد ص ١٨

الحكام الجائرين وسطوتهم ، وتوسّع لهم في الرزق والمعاش ، وتغفر لهم ماتقدّم من ذنوبهم وما تأخر ، وتجاب لهم رضى الله وتدخلهم جنته . وقد تميزت هذه المدائح بحرارة العاطفة ، وصدق التعبير ، وعذوبة الألفاظ وسلامتها ، والبعد عن التكلف والإغراب :

واتخذ بعض الشعراء في البيئات الصوفية المدائح النبوية مادة تقرأ وتنشد في حلقات الذكر وساحات الموالد . وقد غلب على أسلوبها البساطة واليسر وخفة الموسيقى ، والتجاوز — أحياناً — عن الفصاحة والجزالة كما لاحظنا في شعر أبي الحسن الششتري ، أو الالتجاء إلى لغة دارجة ، أو متحررة من قواعد الإعراب وقوانين الشعر . قال ابن حجر : «كان ابن البصيص — توفي سنة ٧١٦هـ — ينظم نظماً عارياً من الإعراب على طريقة الصوفية» (١) :

وفي ختام هذا البحث أقول : إن مانظم من شعر في مدح خاتم الأنبياء محمد (ص) لم ينشر منه إلاّ جزء يسير ، فهناك دواوين خاصة بمدحة لاتزال مخطوطة ، وقد أشرت إلى بعضها ، عسى أن تتولاها أيدي المحققين بالرعاية والاهتمام في قادم الأيام ، والله من وراء القصد :

---

(١) الأدب في العصر المملوكي ١ : ٢٣٢.

## المصادر والمراجع


١ ـ الأدب في مصر في القرن السابع الهجري: د. علي صافي حسين: مط دار المعارف للقاهرة ١٩٦٤ .

٢ ـ الأدب في بلاد الشام: د. عمر موسى باشا: المكتبة العباسية ـ دمشق ١٩٧٢ .

٣ ـ الأدب في العصر المملوكي: د. محمد زغلول سلام: مط دار المعارف ـ القاهرة ١٩٧١ .

٤ ـ الأدب في العصر المملوكي: د. محمد كامل الفقي: مط الهيئة المصرية العامة ـ للقاهرة ١٩٧٦ .

٥ ـ تاريخ ابن الوردي: زين الدين عمر بن الوردي: مط دار المعرفة ـ بيروت ١٩٧٠

٦ ـ التصوف الاسلامي: د. زكي مبارك. مط دار الكتاب العربي ـ مصر ١٩٥٤ .

٧ ـ ابن جبير شاعراً: منجد مصطفى بهجت: مجلة آداب الرافدين ـ العدد التاسع ، أيلول ١٩٧٨ .

٨ ـ الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي في مصر والشام: محمد سيد كيلاني: مط دار الكتاب العربي ـ مصر ١٩٤٩ .

٩ ـ الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية: د. أحمد أحمد بدوي. مط نهضة مصر ـ للقاهرة ١٩٥٤ .

١٠ ـ خزانة الأدب: ابن حجة الحموي: المط الخيرية ـ القاهرة ١٣٠٤هـ.

١١ ـ دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين: د. محمد كامل حسين. مط دار المعارف بمصر ١٩٦٠ .

١٢ ـ ابن دقيق العيد، حياته وديوانه: علي صافي حسين: مط دار المعارف ـ القاهرة ١٩٦٠ .

١٣ ـ ديوان البوصيري: تح: محمد سيد كيلاني: مط مصطفى البابي الحلبي ـ القاهرة ١٩٥٥ .

١٤ ـ ديوان أبي الحسن التشتري : تح : د. علي سامي النشار : مط دار نشر الثقافة ـ القاهرة ١٩٦٠ :
١٥ ـ ديوان أبي حيان الأنداسي : تح: د. أحمد مطلوب، د: خديجة الحديثي : مط العاني بغداد ١٩٦٩ :
١٦ ـ ديوان ابن الساعاتي :تح: أنيس المقدسي .المط الأمريكية ـ بيروت ١٩٣٨
١٧ ـ ديوان الشاب الظريف :تح: شاكر هادي شكر: مط النجف ـالنجف ١٩٦٧:
١٨ ـ ديوان الصاحب شرف الدين الأنصاري:تح: د. عمر موسى باشا. المط الهاشمية ـ دمشق ١٩٦٧ :
١٩ ـ ديوان ابن الفارض :مط دار صادر ـ بيروت ١٩٦٢ :
٢٠ ـ ديوان فتيان الشاغوري :تح: أحمد الجندي . المط الهاشمية ـ دمشق ١٩٦٧:
٢١ ـ ديوان ابن نباتة المصري: مط التمدن ـ القاهرة ١٩٠٥ :
٢٢ ـ ذيل الروضتين : أبو شامة المقدسي : مط مكتبة نشر الثقافة الاسلامية ـ القاهرة ١٩٤٧ :
٢٣ ـ ذيل مرآة الزمان : قطب الدين اليونيني .مط مجلس المعارف العثمانية ـ الهند ١٩٥٤ :
٢٤ ـ السمو الروحي في الأدب الصوفي : أحمد عبد المنعم الحفواني .مط مصطفى البابي الحلبي ـ القاهرة ١٩٤٩ :
٢٥ ـ شرح البردة : خالد الأزهوي: مط الارشاد ـ بغداد ١٩٦٦ :
٢٦ ـ الشعر العربي في العراق من سقوط السلاجقة حتى سقوط بغداد : عبد الكريم توفيق العبود : دار الحرية للطباعة ـ بغداد ١٩٧٦ :
٢٧ ـ الصلة بين التصوف والتشيع :د. كامل مصطفى الشيبي: مط الزهراء ـ بغداد١٩٦٤ :
٢٨ ـ الطالع السعيد :كمال الدين الادفوي. مط سجل العرب ـ القاهرة ١٩٦٦.
٢٩ ـ فوات الوفيات : ابن شاكر الكتبي . تح: د. احسان عباس : مط دار صادر ـ بيروت ١٩٧٣ :
٣٠ ـ في التصوف الاسلامي وتاريخه : نيكلسون : ترجمة أبو العلا عفيفي : مط لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ١٩٥٩ :

٣١ – موجز تاريخ العرب : سيد أمير علي. دار العلم للملايين – بيروت ١٩٦١ :
٣٢– المدائح النبوية في الادب العربي : د: زكي مبارك. دار الكتاب العربي للطباعة والنشر القاهر ١٩٦٧
٣٣ – مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني :د. بكري شيخ أمين .مط دار الشرق بيروت ١٩٧٢ :
٣٤ – معجم الأدباء : ياقوت الحموي .تح: مرجليوث. المط الهندية – مصر ١٩٢٣:
٣٥ – مفتاح السعادة :طاش كوبري زاده. مط الاستقلال الكبرى ١٩٦٨:
٣٦ – ابن نباتة المصري :د. عمر موسى باشا. مط دار المعارف – مصر القاهرة١٩٧٢ :
٣٨ – نفح الطيب : أحمد بن محمد المقري : مط دار صادر – بيروت ١٩٦٨ :
٣٩ – وفيات الأعيان : ابن خلكان. تح : د. احسان عباس. مط دار صادر – بيروت ١٩٧٢ :